شعرية موقف
بين
دقائق اللغة ورقائق الأحوال

الأستاذ الدكتور

عادل حسني يوسف

جامعة الملك سعود – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – قسم اللغة الغربية وآدابها

المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

هذا البحث موكّل بتتبع دقائق المعاني وجزئيات الأفكار، للكشف عن حقيقة فداحة الخطب الذي نزل بالشاعر بن وعلة الجرمي، والوقوف على نبل الأخلاق التي يتحلّى بها، ومعرفة سرّ الفرق بينه وبين من يشبهه في الفن ويقاربه في الخَطْب الذي نزل به.

الكلمات المفتاحية: الشعرية – أسرار اللغة – رقائق الأحوال – الثنائيات – الأغراض – الأفكار الجزئية – أصالة الرجال .

Poetics of a Situation

Between

The Subtleties of Language and the Delicates of State

Professor Dr**. Adel Hosni Youssef**

King Saud University – College of Humanities and Social Sciences –

Department of Western Languages and Literature

Kingdom of Saudi Arabia

Abstract :

Research Summary: This research is entrusted with tracking the details of meanings and particulars of ideas, to reveal the truth of the enormity of the calamity that befell the poet Ibn Wala Al-Jarmi, and to stand on the nobility of morals that he is adorned with, and to know the secret of the difference between him and those who resemble him in art and are close to him in the calamity that befell him.

Poetry - Secrets of Language - The Chips of Conditions - Dualities - Purposes - Partial Ideas - The Authenticity of Men

هدف البحث

يسعى هذا البحث إلى: ضبط أحوال موقف متفرِّد لشاعر جاهلي، يستروح إليه قلب القارئ، مع ما فيه من شديد الألم، وما يكتنفه من قسوة المعاناة، كما أن لصاحب هذه الأحوال، صفات متميزة، وخصال خاصة تسترعي النظر، كان الموقف الذي أشرنا إليه من ثمراتها، لذلك كان لابدّ من ضبط دقائق هذه الخصال والكشف عنها، والبحث يسعى – كذلك - إلى ضبط التقنيات اللغوية الفريدة، تلك التي كشفت عن أحوال الموقف المتفرد والتباساته، وجلَّت خصائص الشاعر وخصاله، وما قاربها واقترب منها، من أمثالٍ وأندادٍ ونظراء.

يقول الشاعر الجاهلي الحارث بن وعلة الجرمي:

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

هذان بيتان من مقطوعة شعرية، عِدَّةُ أبياتها سبعة[١]، ويكتفي من يُعنى بالمعاني والبيان بهذين البيتين[٢]، فهما في الغالب موضع العناية، وعليهما يدور الكلام، على أن وقفة هؤلاء مع البيتين سريعة، وجاءت في سياق الثناء عليهما، ردّاً ومخالفة لما ذكره - الشاعر الكبير- البحتري عنهما[٣]، أما كتب المختارات فتورد الأبيات كلها. وجرياً على سنَّة من يهتم بالمعاني اكتفينا بالبيتين، ولكن لأن من يهتم بالمعاني به حاجة ماسة إلى السياق كله، ذكرت بقيّة الأبيات في الحاشية.

---

١ - وبقية الأبيات هي:

لا تأمنن قوماً ظلمتهم وبدأتهم بالشتم والرغم
أن يأبِرُوا نخلاً لغيرهم والقول نحقره وقد يَنْمِي
وزعمتم أن لا حُلُوم لنا إن العصا قُرِعتْ لِذِي الحِلْم
ووطِئتنا وطئاً على حَنَقٍ وطء المُقَيَّد نابتَ الهَرْم
وتركتنا لحماً على وضم لو كنت تَسْتَقِي من اللَّحْم

شرح ديوان الحماسة: المرزوقي : ٢٠٤/١- ٢٠٦. وانظر شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، صنعة الخطيب التبريزي: ١٥٣/١.

٢ - يُنظر دلائل الإعجاز: ٢٥٣.

٣ - يُنظر المصدر السابق: ١٦٧.

على أن وقفة أهل المعاني مع البيتين كانت سريعة، لا تتجاوز جملة أو جملتين، فيها ثناء مجمل على البيتين، يفيد أنهما من مختار الشعر، وكان ذلك لإثبات موقف فحسب، وقد كان – كما تقدم - رداً على ما ذكره البحتري عنهما.[١]

وفي الحق فإنك لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى يَعْظم أثرهما في نفسك، ولا تملك إلا أن تتألم، حيث ترى رجلاً عزيزاً، مهيباً، ركين المنزلة، وتستمع إليه فتدرك من ساعتك، عظم الألم الذي يسكن نفسه، وتتبيّن الحزن البالغ الذي يتراءى لك، من كل كلمة يقولها، وفي كل وحي يرسله وكل إيماءة يرسمها أو همسة يهمسها. وكلما أعدت القراءة بانَت لك عذابات الشاعر وبان ألمه، فهو يوصل إليك – دائباً- مزيداً من أنين أنفاسه.

وكنت قد قرأت هذين البيتين أول مرة، وأنا على مقاعد الدرس الجامعية الأولى، وأحسست أننا مع نَفْسٍ عزيزة وزكية، يعصف بها ألم عميق وعاصف، لا تصادفه إلا قليلاً، ويكاد يَحْضُرك بعض هذا الألم، وتأخذك الدهشة والحيرة من ذلك. ومنذ ذلك الحين وأنا أعود إلى هذا الشعر حيناً بعد حين ويعود إليّ، حتى قيض الله لي الوقوف عنده، راجياً أن أقول فيه ما يفيد.

وتسترعي أنظارَك من هذا الشعر مظاهرُ عديدة، منها وفرة الثنائيات، المشربة بمعنى من معاني المقابلة والتضاد، ومن هنا يجدر بنا أن نضبطها، ونتأمل لنرى المخبوء فيها.

سيادة الثنائيات

تلحظ في هذين البيتين ثنائيات حادة ومتقابلة، يلحّ عليها الشاعر، منها:

١- حرف (الياء)، ضمير المتكلم، ومرجعه الشاعر المتألم، وهذا الضمير يتكرر، ويعلن عن نفسه بهذا التكرار، وهذا طرف، والطرف الآخر يمثله الضمير (هم) و (الواو) من قوله (قتلوا)، ويعود هذا الضمير إلى من آذى الشاعر حين غدر بأخيه.

٢- إن استبعدنا ضمير الشاعر ظهرت لنا ثنائية أخرى، وفيها (الأخ) المغدور، والغادر القاتل، وهم (قوم) الشاعر.

٣- سماحة نفس الشاعر والعفو عن قاتل أخيه الحبيب، تقابله لحظة الغضب منه ومحاولة البطش به.

---

١ - يُنظر: المصون في الأدب: ص ٣-٤، وينظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٥٣.

٤- قسوة القوم الذين قتلوا أخاه، تقابلها سماحة النفس ورقة الطبع من الشاعر، تلحظها في قوله (يصيبني سهمي).

٥- والشاعر من نفسه في ثنائية عجيبة، حيث تراه في الشطر الأول من البيت الأول غاضباً ممسكاً بالسلاح يوشك أن يبطش، ثم فجأة تراه يعفو، ويريك أن من قتل أخاه هو بضعة منه، (فإذا رميت يصيبني سهمي).

٦- سماحة النفس البادية في رقة جانب من لغة الشاعر والدفء فيها، تقابلها مرارة في لغته من جانب آخر.

٧- (إذا رميت يصيبني سهمي)، من يرمي السهم يصيب غيره، لكن الشاعر يرمي فيصيب نفسه، وهذا التركيب العجيب معمعةُ معان.

٨- (القوم) و(هم) و(الواو) من الفعل (قتلوا)، يقابله ضمير الشاعر (الياء) من كلمة (أخي)، والياء من كلمة (قومي)، ومع أن هذه الياء الأخيرة تكاد تستر التضاد وتخفيه، إلا أنه كامن هناك ورابض، ينتظر من ينبه عليه ويكشف عنه، وهذا شيء مهم للغاية.

خصائص لغوية وخصال إنسانية

هذه الثنائيات المشتملة على التضاد، تورث – عادة - التوازن في الأسلوب، فتَشدَّ من أسره وترفع من قدره، لكن المفارقة أن هذه الثنائيات في الوقت نفسه، هي آفة الشاعر وعلّة ألمه وسبب عذاباته، بيان ذلك أن الشاعر لا يستطيع نسيان مصيبته في أخيه، فقد كان الأخ الحبيب، ومن هنا فإن غضبه شديد وألمه مُمِضّ، وما من شفاءٍ من هذا الألم إلا الثأر والانتقام.

ولكن الأخذ بالثأر هنا ليس فيه الشفاء المعهود، لأن من قتل أخاه هم قومه وأهل خاصته، (فإذا رميت يصيبني سهمي – ولئن سطوت لأوهنن عظمي)، فالثأر إذا كان يَشفي، فإنه أيضاً يقتل ويُصمي. والشاعر من هذا التناقض في عذاب لا ينتهي، وهو يدور في هذه الحلقة المفرغة، إذ لا يفارقه غضبه الشديد لأخيه حتى يعود إليه، ولا يكاد يهدأ قليلاً حتى يرى نفسه ممسكاً بالقوس ليرمي القاتل، وهو من هذه الحال في مغالبة وعنتٍ ليس معها راحةٌ البتة. ومن هنا كان التعبير بـ (إذا) بدلاً من (إن) موفقاً: (فإذا رميت)، لأن (إذا) للشرط الذي يكثر وقوعه، أما (إن) فهي للشرط الذي يبعد وقوعه،

أي أن الشاعر كثيراً ما كان يحضره الغضبُ لأخيه، فيفزع إلى سلاحه لينتقم، فيَشفى صدرُه قليلاً وتسكن ذات نفسه، لكنه لا يلبث أن يتذكر أن من يحاول قتله هم قومه، فلا يجد مفراً من ترك سلاحه، فتبقى ناره تحرقه.

مظاهر من اللغة وشعرية موقف

لاحظ حرف (الياء)، ياء المتكلم في البيتين، واستمع إلى لطافة جرسه وهمسه، وتأمل موقعه من المعاني تشعر بغير قليل من الهدوء الممزوج بالمودة واللطف، وسماحة النفس وسلامة الطوية (أخي) و(قومي ...)، فأخوه بضعة منه، وقومه كذلك هم جزء منه، بل هم (عظمه) وعمود بدنه وأساس كيانه:(لأوهنن عظمي).

لكن تكاد تلمس معنى آخر لـ (الياء)، له صلة بتكراره، وتحس بأن الشاعر قد أخفى هذا المعنى برفق، وأودعه بمهارة في هذا الحرف الجليل، فأنت تصادف (الياء) خمس مرات في بيتين فقط، وبعض الظواهر إذا صادفها المتأمل مرة واحدة وجب أن يقف عندها، ويفتش عما وراءها، فكيف وأنت تلقاها خمس مرات، فالكلمة – في النصوص العالية - لا تعاد إلا لغاية، وإلا فإنها عبث.

ثم نحن نعلم أن ياء المتكلم تضيف الأشياء إلى النفس، وتعلن تبعيتها لها، وإذا كانت (الياء) في سياق ذكر الناس وحضور صلات القربى، يكون من لطف معانيها، أنك أنت القائد وهم تحت إمرتك، لك أنت الريادة، وكلُّ مَن حولك، وكل شيء سواك، يدور في فلكك، أنت من يُشهر اسمه ويَكْثُر ذكره.

ومن هنا نشر الشاعر ذكره في البيتين بواسطة الحرف الدال عليه، فتكرار (الياء) هنا في هذا السياق هو آية السيادة ورمز القيادة لشاعرنا[١]، وعندما يكثر دوران ضمير المتكلم في كلام ويستفيض، يوحي بأن وراء ذلك نفْسٌ تشعر بأنها ذات متفردة ومتميزة يَعِزُّ أن يكون لها نظير[٢].

١ - كان قد دَاخَلَ وخامر وجداني قبل أن أرجع إلى كتاب الأغاني، فلما عدت إليه وجدته يقول:" وكان وعلة الجَرْمي وابنه الحارث من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها" ١٥٢/٢٢.

٢ - ينظر : شعرنا القديم والنقد الجديد: ٢٤٦.

ومعنى السيادة، تشير إليه ظواهر أخرى، من ذلك قول الشاعر في البيت الثاني (عفوت) و (سطوت)، فالعفو يكون عن قدرة وسلطان، والسطوة تكون مع الاقتدار والتمكن والعلو.

وحضور هذا الإحساس في نفس الشاعر، أعني الإحساس بالسيادة، هو الذي مكّنه من ترك الأخذ بالثأر، وإلا فإن شهوة الانتقام من قاتل الأخ الحبيب قاهرة وغالبة، ولا يستطيع ردّها كل أحد، إلا من كان سيداً، وللسيادة أثمان يجب دفعها، ومنها أن تتغلب المصلحة العامة للقوم على مصالح النفس المفردة، وأول مصلحة للقوم وأهمها هو بقاء القوم مجتمعين، ومن هنا ترى السيد المحب الحكيم، يسعي إلى الامتناع عن كل سبب يضعف الرابطة بين جماعة قومه، وأجدَرُ سبب لتقوية هذه الرابطة هو العفو والتسامح، وأفتك داء بالجمع المتآلف هو الثأر والانتقام.

لكن الشعور بالاقتدار والتمكن والسطوة، لم يمنح الشاعر راحة، بل كان جالباً لمزيد من الألم، وكان ذلك لسببين:

- فالشاعر لم يعف لأنه نسي حق الحزن على أخيه العزيز، ولم يتجاوز لأن حميّته في الغضب قد ضَعُفت تجاه الحبيب الذي بغى عليه قومه فقتلوه، وإلا لكان هذا من باب الهوان وقلة الوفاء، وأَكْرِم بالسيد أن يكون كذلك، إنما عفا لأنه وجد حق قومه في البقاء مجتمعين متآلفين، أولى من حق نفسه في الأخذ بثأر أخيه. ومن أعراف العرب وأخلاق ساداتهم أن الانتقام خلق الضعفاء، أما العطاء فهو من خلق ذوي السلطان، والعفو عن القاتل طمعاً في سلامة القوم عطاء وأي عطاء[١].

- والسبب الثاني لزيادة الألم، هو أنه سيد، وأنَّ له السطوة والاقتدار، ومن كان كذلك فإن إرادة الانتصار لأخيه لا تفارقه، والاشتياق إلى شفاء الصدر بالانتقام أبداً تراوده، وهذا عذاب وأي عذاب، والحال أنه لا يمكن أن يُمضي إرادته، وذلك لالتزامه بموجب السيادة الذي ذكرناه.

أما من يعرف من نفسه الضعف، وأنه لا يقوى على الانتقام، فإنه يَقْنط وييأس، ومع اليأس تأتي الراحة كما ذكر الشاعر، حيث يقول:

وفي الحق منجاة وفي اليأس راحة وفي الأرض عن دار المذلة مذهب[٢]

---

١ - خصائص التراكيب: ٢١١.

٢ - ديوان حُمَيْد بن ثَوْر الهلالي: ٢٥٢.

ويقول الحارث بن حلِّزة اليشكري:

ويئست مما قد شُغفت به منها ولا يُسليك كاليأس

فمن يضعف ويعجز، ييئس، واليأس يصرفه فينسى، وعندها ينتفع بيأسه كما انتفع الفرزدق به:

إني ليَنْفعُني يأسي فيَصرفُني إذا أتى دُونَ شيءٍ مِرّةُ الوَدَم[1]

تقنيات لغوية ومعدن رجل

كل ظاهرة في الأسلوب لها أهميتها من حيث الدلالة، فإذا أعيدت، استرعت النظر أكثر واستوجبت التوقف عندها، وظاهرة (الثنائيات) التي وقفنا عندها – كما يبدو – فيها إشارات عميقة، لها صلة وثيقة بشخصية الشاعر، فهي تحدد ملامحه، وتكشف معدنه، وترصد – خفية وجهرة – بدقة ما يستعر في نفسه.

وكل هذه الثنائيات تحتفي بذلك وتحتشد له، لتكشف عن رجل نبيل، يحمل أخلاق القائد الفذ، الذي يحاول أن يعدل الميزان، ليحفظ له استواءه بين حق الفرد وحق الجماعة، أو قل بين حق نفسه وحق الجماعة التي تتبعه، والشاعر يسعى ويعمل لضمان هذا التوازن، حتى لا يقع ضير على أي طرف، ولا يلحق ضرر بأي جانب.

والشاعر، هذا الرجل النبيل، قد نزل به ضرر كبير، فقد قَتل قومُه أخاه، وخسارة الأخ مصيبة وأية مصيبة، فكيف بها، إذا كان القاتل قومَه، وهم أهله الأقربون والأَدْنَوْن، ولهم المودة والمحبة، كما توحي بذلك الإضافة إلى ياء المتكلم (قومي)، لكن الأذى ممن تودّ أمرٌّ، لاسيما إذا تذكرنا، أنهم هم مظنة أن يصونوا أخاه لا أن يُؤذوه، وأن يحسنوا إليه ويحفظو حياته لا أن يقتلوه.

ولاحظ كيف أَخرج الكلام: (قومي هم قتلوا أميم أخي)، (قومي)، لاحظ هذه الإضافة بياء المتكلم إلى النفس، تجد فيها حفاوة من الشاعر بقومه، لا يُقادر قدرها، ويستشعر الدفء والاطمئنان، وأن وراءه ظهير يحميه ويصونه، لذلك تنتظر أن يلي قوله: (قومي) لفظ مبشرٌ، يناسب هذه الحفاوة ويتسق مع هذا الانتماء، لكنك تفاجأ بـ (قتلوا)،

---

١ - ديوان الفرزدق: ٧٦٧/٢.

فيفزع القلب ويبادر فيتساءل، قتلوا من؟ ثم تأتي الطامة الكبرى في الكلمة التالية، قتلوا (أخي).

وهذه الياء من كلمة (أخي) فيها دلالتان عجيبتان، فإذا تأملتها مقرونة بصحبة (هم قتلوا)، احسست بغضب الشاعر، ووجدته وكأنه يقدم لك داعيةَ تسويغ الانتقام وشاهدَ تبرير الأخذ بالثأر، لأن قومه يَجْدُر بهم أن يحفظوا أخاه لا أن يقتلوه كما قلنا. ثم لاحظ ضمير الفصل (هم) الذي يفيد التوكيد، تجده يوثِّق الغضب ويزيده، وهو بمعنى التوكيد فيه، يجسد اليقين لدى الشاعر على أن قومه هم الذين فتكوا بأخيه، وهذا كأنه بسط لعذره إذا فتك بالقاتل.

لكن – من جهة أخرى - إن تأملت موضع إضافة القوم إلى المتكلم من قوله (قومي)، وجدت فيه مظهر احتفاءٍ دافئ بالقوم، وكأنه يقول: هم قومي أنا، هم أهلي أنا وخاصتي أنا، وهذه لغة دافئة وودودة، فيها حسّ القرب، ويد الرفق، وكأن الشاعر يفتح للقوم بابَ العفو وسبب الإمساك عن الرمي، فهم (قومي)، ويقوى هذا المعنى لديك إذا استرقت نظرة إلى الياء في بقية الكلام، (فإذا رميت يصيبني سهمي)، (ولئن سطوت لأوهنن عظمي).

أرأيت المحنة التي ثوى فيها شاعرنا! فهو يتردد بين غايتين، كأنه يُطحن بين حجري رحى. والتردد بينهما فيه العنَتُ كله، بيان ذلك أن الشاعر تحضره ذكرى أخيه الحبيب، فيعتصره الألم، ويتعاظم شعور الغضب في نفسه ويتكاثر، ولا يجد بداً من أن ينهض لينتقم، وفي مثل هذه اللحظة – والسلاح في اليد – لا يمكن للمرء أن يتراجع، ولا لسلاحه المقتدر أن يعفو:

أمضى من السيف إلا عند قدرته وليس للسيف عفو حين يقتدر[١]

ولكن مع كل ذلك، فإن الشاعر يضطر فيقبض يده ويدع سلاحه، فما الذي أوقفه وقد كان أوشك أن يبطش؟ الذي منع الشاعر هنا هو أنه قد حضره داعٍ آخر، وشعورٌ أقوى من شهوة الانتقام، يتصل بحرصه على دوام اجتماع قومه والخشية على ذهاب وحدتهم، يضاف إلى ذلك ويزيّنه، محبته لقومه: (فإذا رميت يصيبني سهمي)، (لأوهنن عظمي).

١ - العقد الفريد: ٢/١٨١.

أرأيت كيف تتجاور العواطف المتقابلة في وقت واحد! أرأيت المشاعر المتناقضة، حين تتجاور كيف تتداخل وتتحاور!

صحيح أن المرء لو خُيّر بين أخيه وقومه فإنه يختار أخاه، لكن هذا شأن عامة الناس وسوادهم، وهم يميلون إليه بفطرتهم، أما الشاعر فهو من طينة متميزة، إذ لا يشبه عامة الناس، لأن فيه من نبل الأخلاق ونفاذ البصيرة والإحساس بالمسؤولية ما فيه، وهذا ما دفعه إلى العفو وترك معاقبة قومه.

ويبدو أن شاعرنا، الحارث بن وعلة، قد أخذ بمبدأ أصيل يلجأ إليه أمثاله من أهل البصيرة الفضلاء، وهو أنك" لا تنجو مما تكره حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد"[١]، إذ كان يحب أن ينتقم لأخيه، ويشفي صدره بالانتصار له، ويدفع عن نفسه عدواناً قهره، وربما – فوق هذا وذاك- ليُبعد عنه ظنَّ من يتوهم أنه خذل أخاه ونسي ذكراه واستكان. كان يريد الانتقام لهذه الأسباب جميعاً، لكنه امتنع عنه، لأنه – ببصيرته - أراد أن يَسْلَم قومُه من التعادي والانقسام والتفرق.

تشابك المعاني وشعرية موقف

ولا تعجب من التداخل بين العواطف، ولا تنكر التباس بعضها ببعض، فإن ذلك من طبيعة النفس البشرية، بل إنك إذا دققت وجدت أنه قلما تسلم للنفس عاطفة من نوع واحد، أو يصفو لها طِيْبُ شعور من غير كدر، إذ لا تكاد تجد فرحاً إلا وفيه شوائب من الحزن، ولا يكاد الأمل يُلِمّ بك إلا ويزاحمه أَثارةٌ من يأس، حتى تَقول ماذا لو، وماذا لو.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى شيء مهم، وهو أن غلبة موقف العفو على الشاعر، وتقديمه وحدة القوم على الثأر لأخيه والانتقام له، لا يعني أنه ما عاد يعتب على قومه في شأن أخيه، وأنه لم يعد يغضب له، أو أنه نسي مظلمته وفارقته ذكراها، بل مع كل ما تقدم، تراه يعاوده الغضب، ويَثْقُل عليه عدوان قومه عليه، فيتهدد ويتوعد:

لا تأمَنَنْ قوماً ظلمتهمْ وبدأتهم بالشتم والرغم

أن يأبروا نخلاً لغيرهمُ والقول تَحْقِرُه وقد يَنْمِي

١ - تاريخ حكماء الإسلام: اص ٤١.

وهذا الأمر مُرَكَّب ومتداخل، ففي لحظة واحدة، أراك الشاعر أنه يريد الفتك بقاتل أخيه، ثم لم يلبث أن قرر تركه والعفو عنه، وفي الساعة نفسها تكاد نفسه تتمزق كمداً على أخيه، وتراه في اللحظة عينها ودوداً وقريباً ممن غدر بأخيه، ويَعُدُّهم كنفسه (لأوهنن عظمي)، (فإذا رميت يصيبني سهمي).

وفي اللحظة التي يشعرك بقوة الرابطة بينه وبين قومه، يريك موضع التضاد والخصومة معهم، وفي عبارة واحدة، تلحظ في أحد وجوهها وُدَّ الشاعر لقومه وارتباطه بهم، وفي وجهٍ آخر تجد مرارته منهم وخصومته لهم.

قف عند نسبة القتل إلى القوم كلهم: (قومي هم قتلوا أميم)، هكذا، باسم الجمع، ولاشك أن القوم كلهم لا يمكن أن يجتمعوا على قتل أخيه، بل يُرَجّح أن واحداً منهم قد فعل، أو على أبعد تقدير، مجموعة منهم فعلت، فلماذا نسب الشاعر هذه الخطيئة إلى القوم كلهم، وكثير منهم بريء. أنا أفهم أن الشاعر –ربما- يشير إلى أنه كان يَنْشُدُ من بقية قومه أن يقيموا النَّصَفَةَ، وطلب العون منهم ليقيموا المعدلة.

ويبدو أنهم أحجموا وسكتوا، فدلَّك الشاعر باختياراته الدقيقة على سبب الخصومة، وأشهدك أنهم بسكوتهم كأنهم قد شاركوا في قتل أخيه، ولا تنس موضع التوكيد في ضمير الفصل (هم)، فإنه يثبت الجريمة والإدانة ويصحح الخصومة مع قومه.

وهذه معانٍ عنيفة تعصف بالنفس، وهي عميقة وغائرة في خفاياها، ومثل هذه المعاني في الغالب يشتدُّ تشابكها في مثل هذه المواقف، ويزداد تداخلها في مثل هذه الحالات، وهنا مع هذا الشاعر اشتبكت هذه المعاني والمشاعر وتداخلت وتجذرت وغاصت.

ولا تكون المعاني على هذه الهيئة من التداخل والتشابك في النفس وحدها، بل تكون كذلك في الكلام، ومن هنا فإن الإمساك بها ليس يسيراً، كما أنه لا يسهل ضبطها وتحديدها، وهذا التَّأَبِّي سببه أن المشاعر والعواطف تَرُوغ، ومن جهة أخرى لأن لغة الشعر لَمْحٌ وإيجازٌ ومجاز.

لكن مع ذلك، قد وجد الشاعر طريقاً لضبط هذا التداخل في المشاعر، وعثر على سبيل لوصف المواقف المضطرمة باقتدار، فهو دقيق في اختياره لكلماته وفي هيئة تراكيبه، لاحظ قوله (قومي هم قتلوا أميم أخي)، لاحظ تقديمه لكلمة (قومي)، وراقب مع التقديم إضافتها إلى الياء، قدّم (القوم)، لأنهم هم الملجأ إذا دَهمك خطر، وهم أول ما يفزع إليه

المرء إذا حلّت نائبة، فهم القوة الضاربة وهم الطمأنينة، هذا هو المعهود، لكن قوم الشاعر خذلوه ونكصوا عن واجبهم، وفي هذا ذمّ خفي وشديد لهم وتعبير عن تذمره منهم.

وهذا الموقف، أعني الموقف الذي يقلب لك قومك فيه ظهر المجن، هذا موقف عصيب، لاحظ كيف صور الشاعر مصيبته المفزعة هذه، لاحظ صيغة النداء العجيبة، ففيها من براعة التصوير ما فيها، لاحظ لما افتقد الشاعر قومَه، لم يجد إلا فرداً واحداً يناديه (أميم)، وأنى لفرد واحد أن يقوم مقام قوم، وفي ساعة فَزَع أورثها عدوان قومه عليه، لا شك – والحال هذه، حيث لا نصير ولا مجير غير فرد واحد – أن الشاعر قد تقطعت أنفاسه، فها هو لا يجد بقية طاقةٍ في نَفَسِه لينطق العبارة كلها، فيُسْقط أداة النداء مضطراً، فبدلاً من أن يقول (يا أميم) يكتفي بـ (أميم)، ومرة أخرى يستجمع قواه لينطق المنادى فيقول (أميمة)، فتخذله قواه، إذ لا تكفي أنفاسه إلا لـ (أميم) ويَخْرِم بقية الاسم وينقطع نفَسُه، لما به من أثر الخذلان. أرأيت براعة التصوير كيف تكون؟! فالموقف هائل ومفزع، ويا للهول! أي قوم هؤلاء!

في الحقيقية أكاد أسمع لقلبي وجيباً وأنا أُقرأ هذا الاتقان في التصوير، وأُوشِك أن أسمع لصوت الشاعر نشيجاً، نعم أنا أسمع بكاء الشاعر، لأن المصاب يَبكي مرات عدة، يبكي عند حضور المصيبة ووقوعها، ويبكي عندما يقصها على الناس، وأنا من هؤلاء الناس، لذلك قلت كأنني أسمع صوت بكاء الشاعر وهو يُنشد بأنفاسه التي أبهرها خذلان قوله له.

ثم لاحظ هذا التناظر بين أول كلمة من هذا التركيب، وراقب الأخيرة منه، (قومي)، (أخي)، القوم والأخ أعداءٌ كما ترى، لأن أحدهما قتل الآخر، لكن كما ترى فإن الكلمتين خُتِمَتا بحرف الياء، وهو في الحالتين ضمير الشاعر، فالشاعر كأنه يوحدهما، ويوصل ما انقطع بينهما، يبدو الشاعر في الوسط ممسكاً كل طرف بيد، ينظر يميناً فيرى أخاه المقتول، وينظر شمالاً فيرى قومه القتلة.

وكأن هذه إدانة جديدة لقومه، ومزيد تجريم لهم، وكأن الشاعر – وهو يتوسط الطرفين - يقول لقومه إن لم تُبْقُوا على أخي، حُرمةً له، باعتباره فرداً منكم، كان عليكم أن تتركوه كرامةً لي، ورعاية لما بيني وبينكم، لكنكم قتلتم فرداً منكم، فكانت جريمة، وخَفَرْتم فيه ذمتي وخنتم عهدي، فكانت جريمة أخرى.

تأمل هذا الذي مضى، وأَثْبِتْ صورةَ قوم الشاعر - هذه - في مخيلتك، وتَثبّت منها، وراقب الخِلال الخفية والظاهرة، التي نعتهم بها، والخصال التي أسبغها عليهم، فكلها تندرج في باب واحد، باب المرارة الشديدة تجاه قومه، نتيجة الضرر الذي ألحقوه به والخذلان الذي وجده منهم. وربما ذكَّرك هذا الخذلان بقول الله تعالى على لسان نبيه: " وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا مهجورا"، (قومي)، " والتعبير عن قريش بـ (قومي) لزيادة التذمر من فعلهم معه، لأن من شأن قوم الرجل أن يوافقوه"[١]

يبدو لك هنا في لغة الشاعر معنى المرارة ظاهراً بيّنا، ويبدو لك – من شدة العناية به والالحاح عليه – كأن الشاعر ليس له غرض له سواه، وأنه لم يُوَكّل قلبه بغيره، ويظهر لك أن من يُشغَل قلبُه بغاية كهذه، وتستحوذ على نفسه مثل هذه العاطفة، لن يكون في مَنْطِقِه مكان لغرض آخر، ولا في كلامه مساحة وبقيّة لمعنى سواه.

حتى إذا أدرت وجهك عن هذا الشعر قليلاً، وذهلت عن ألم الشاعر برهة، ثم عدت إليه وجدت ظلالاً لأنفاس ظليلة، مختلفة عن النسق المتقدم، يُسِرُّ بها الشاعر إليك بعناية بالغة، ويحرص على حضورها كثيراً، وهي وإن لم تكن ظاهرة كظهور الأولى، إلا أنك تجدها تأتيك - ثابتةً - من غورٍ بعيد في نفس الشاعر.

ففي الكلام ذاته إذاً وجه آخر، وهو وجه يستحق أن تقف عنده، وفيه من الدقائق والرقائق ما يعجبك، وأول ما يدهشك فيها، أن الشاعر ينتقل من باب المرارة تجاه قومه إلى باب الرضى عنهم، ومن باب الغضب عليهم إلى ذكر ودِّه لهم.

لاحظ قوله (قومي هم قتلوا أميم أخي)، هذه الياء عجيبة كما تقدم، (قومي)، فالشاعر لم يُضفهم إليه إلا لقربهم من نفسه، ولعلوّ منزلتهم لديه، صحيح كنّا قد قلنا إنه قد حمّلها من معاني المرارة ما حمّلها، ولكن أليس يعتب المرء على المحب إذا أساء، أكثر مما يعتب على الغريب، ومن هنا أحسُّ أن الشاعر عندما يقول قومي، يريد: أحبائي، أهلي، خاصتي، مع حبي لهم قد فعلوا ما فعلوه بأخي.

وهكذا ترى أن صيغة واحدة أو تركيباً واحداً قد يُشحن بمعنيين، إذا تناولته يد الخبير، ثم يدلّك على صحة ما ذهبنا إليه أنه لما استبدّ الغضب بالشاعر على مقتل أخيه وفزع إلى السلاح ليبطش بقومه، استيقظ لديه نبض المحبة فقال (فإذا رميت يصيبني سهمي)،

---

١ - تفسير التحرير والتنوير: ص١٧/ج١٩/مج٨.

أي حتى بعد مقتل أخيه، فإن قومَه هم بمثابة نفسه، أرأيت هذا الودّ، فما يصيبه يصيبهم، وما يؤذيه يؤذيهم، وأكثر منه قوله: (ولئن سطوت لأوهنن عظمي)، فهم ليسوا بضعة منه فحسب، بل هم منه بمثابة أساس البدن، فقومه قد (سطَوا) وقتلوا أخاه، والشاعر هنا يمسك يده فلا (يسطو)، لماذا؟ لأنه إن فعل سيوهن عظمه، فقومه هم عظمه، أية محبة هذه! وأجدِر أن تكون قوية وراسخة وثابتة، لأنها إن لم تكن كذلك لبادر الشاعر إلى إمضاء رغبته في الانتقام لأخيه.

ومن هنا أرى أن رِقَّة الياء من قوله (قومي)، ودلالتها على الودّ والمحبة تكافئ رقة الياء من قوله (أخي)، وهي وإن لم تكن مثلها فإنها قريبة جداً منها، أو إن كانت تنقص عنها قليلاً، فإن إحساس الشاعر بالمسؤولية تجاه وحدة قومه، يسدُّ هذا النقص ويجبر كسره.

وذلك لأن الحب وحده لا يقف للنفس إذا هاجت، ولا تقف المودة وحدها حائلاً دون الانتقام والأخذ بالثأر، فهذه لحظات تُوقدُ النارَ في النفس، وتعصف بالحلم والرشاد، لذلك لا بد أن تقترن المودة بروح الإحساس بموجبات السيادة، ليدوم الرابط الذي يشد الأفراد بعضهم إلى بعض، ويبقي القوم مجتمعين.

هذه (الياء) في (قومي)، و(الياء) في (أخي) وبقية الكلام، جديرة أن نسميها (ياء) السيادة، وأظن أن هذا الشاعر كان أحد السادة في قومه كما ذكرنا، إذ من موجبات السيادة، أن تعفو عن القوم إذا أساؤوا، وأن تحلم عنهم إن جَهِلوا، وأن تسامحهم وإن سَفَهوا عليك، وهذه الخلائق هي التي تبقي القوم مجتمعين. وهذه غاية لا يطيقها كل أحد، إنما يرقى إليها النبلاء من أهل السيادة أولاً.

معادن أخرى من الرجال

والشيء إذا قيس بغيره بانت حقيقته أكثر، وظهرت أوصافه وتجلت، كما أن المرء إذا وضعتَه بإزاء أقرانه ظهر لك معدنه، وتكشفت خصاله.

وههنا نماذج أخرى لرجالٍ، مرّت بهم أحداث، يبدو أنها كتلك التي مرّت بشاعرنا، وعانوا من مثل ما عانى منه، إذ نالهم من أقوامهم وذويهم ألوان من الظلم والعدوان، شبيهةٌ بما نال صاحبنَا. قال عامر بن علقمة[١]:

أبى قومنا أن يُنصفونا فأنصفت قواطـع فـي أيماننـا تَقْطر الدَّمـا

أغشماً أبـا عثمـان كنتـم قتلتـم ستعلم حِسلٌ أيّنا كـان أغشمـا

ضربنا أبا عمرو خراشاً بعامـر ومِلنَـا على ركنيـه حتـى تهدّما

هذه الأبيات –من حيث الغرض والموقف العام- تشبه أبيات الحارث بن وعلة المتقدمة، لكن عندما تدقق في التفاصيل ترى الفرق الواضح، وتظهر لك التلاوين التي تميز كل موقف، إذ تفتقد هنا في أبيات عامر بن علقمة العناية باجتماع القوم، ويغيب الحرص على وحدتهم وحفظ دمائهم. وهمُّ حفظ هذا الاجتماع، ينبغي أن يسْري في كل نَفْسٍ وتصحب كل نَفَس، ولا يجوز أن تقتصر على رئيسهم وسيدهم فحسب، هذا الإحساس لديه أقوى، نعم، لكن يجب ألا يخلو منه أي فرد خلواً تاماً، وإن حصل فالقوم من الضعف في خطر داهم.

إذا تأملت هذا النموذج من الأبيات السابقة، تجد أنه لا يفرق بين قريب وبعيد، إذ حدثَ أنّ شطراً من قومهم لم ينصفوهم، فأعملوا فيهم السيف حتى سالت دماؤهم، فالسيف ليس للتهديد، إنما هو للفعال هنا، ثم إنهم لم يعدلوا في انتقامهم، حيث لم يَقتُلوا بالقدر الذي قُتِل منهم، بل فَجَروا وبغوا، (ستعلم حسل أيّنا كان أغشما)، أي أينا كان أظلما، والظلم هنا يعني الزيادة. وهو هنا لا يهتم ولا يستشعر حرجاً، من وصف نفسه بـ(الأغشم) بل يعلن ذلك ويجهر به، ثم يزيد ويشتط فيفخر بهذا البغي في الظلم وتجاوز الحدّ، ولقد استمروا في الضرب حتى هدموا أركان القوم، ولم يراعوا أنهم أناس من قومهم.

وفرق بين كبير من يسامح قومه الذين ظلموه، ويعلن عن بقاء مودتهم في قلبه، ومن ينتقم من قومه وينتصف منهم بالسيف، ثم لا يكتفي بذلك حتى يهّدم أركانهم، ثم يزيد فيجعل هذا العدوان من مفاخره. لا شك أن العقل هنا مُغيَّب عن هذا النموذج، والرشد لا مكان له في ساحتهم وساعتهم، أما شاعرنا الحارث، فقد عصمه من هذا الضياع عقلُه

١ - كتاب الوحشيات: ٦٧.

ورشدُه، لذلك سَلِم قومه وسلم هو، في حين تهدّم شطر القوم الآخرين، ومن يهدم شطراً من قومه يخسر كثيراً ويَهون على بقية الأقوام.

وقريب من هذا المعدن أناس آخرون، ما إن يقترب منهم أحد قرابتهم بسوء حتى يخوضوا في دمائهم[١]:

إذا احتربوا يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

فهم إذا غضبوا فارقهم الحلم، وتاهوا فما عادوا يبصرون، وكأَنْ قد مسهم طائف من الجن، حيث لا رعاية لرحم، ولا حرمة لقربى، إذ لم يرتدعوا حتى سالت الدماء وفاضت، (إذا احتربوا يوما ففاضت)، هي حرب إفناء إذاً.

لقد انقادوا لشهوات النفس في الانتقام وخضعوا لجبروتها، ولم يعد إليهم رشدهم حتى فاضت الدماء، في حين لم تَسْخُ نفس شاعرنا أن يخسر واحد حياته، وقبل أن يبطش بمن قتل أخاه كفّ يده، لأن الصلة بينه وبين قومه حية، والرابطة ندية. لكن هؤلاء على قسوتهم، هم أفضل ممن تقدم قبل قليل، لأنهم – على الأقل - لم يبادروا إلى الفخر بما فعلوا، كما أنهم عاد إليهم رشدهم من قريب فبكوا نادمين على فعلوا بقرابتهم.

والفرق كبير جداً بين النموذجين أقصد بين شاعرنا والنماذج الأخرى المتقدمة، ليس في خلائق النفس وحدها، بل هو في مقدار المعاناة، وهو كذلك في هيئة الكلام وطرائق التعبير.

فقد يتراءى لك أن مقدار المعاناة لدى الفريقين واحد، أو هو متقارب، وكذلك قد تظن أن مقدار الغضب واحد أو متقارب، لكن في الحق إن الفرق كبير، بل كبير جداً، وذلك من جهة أن من حضره غضب شديد من ظلم أصابه، فإذا انتصف ممن ظلمه ذهب جلُّ غضبه، فإذا بغى وزاد في العدوان طابت نفسه واحتفل، وهنا ترتاح النفس، وعندما ترتاح النفس من فتنة الغضب، تفتقد شعلة النار التي توري زند البيان وتقدح شرره.

أما شاعرنا فنار الغضب موقدة بين جنبيه، وحمّى الانتقام في صدره يغلي، وكل ذلك باق هناك في نفسه يمور ويفور، ولا يفثأ سورته غير الانتصار لأخيه بالفتك بقاتله، وكما نعلم فإن الشاعر – لمحبته لقومه وخوفه من أن يؤذي وحدتهم - عفا عمن ظلمه وسامح.

---

١ - دلائل الإعجاز: ٩٣.

ونار الغضب الموقدة التي لا تهدأ، هي ما أوقدت نور البيان في لغة شاعرنا، وهي التي أشهرت ذكر بيتيه ونشرت خبرهما، فسارت بهما بعيداً إلى مجامع الناس ومحافلهم، ودَوَّنها لأجل ذلك أهل البلاغة والأدب في كتبهم.

فالمعاناة – كما ترى- لدى شاعرنا تعصف به، حتى كأني به يريد أن يبطش لكنه لا يفعل، وتلوح له ذكرى أخيه فيُلَوّح بسلاحه لكنه يمسك، وتحضره نار خسارة أخيه، فيشير بسهمه ويسدد لكنه لا يطلق، فالمعاناة –كما ترى- في أقصى درجاتها، ومن هنا كانت لغة شاعرنا مختلفة، حيث جاءت على وِزان ما كان يعانيه من حيث القوة والشدة، فعندما تستمع إلى شعره فكأنك تسمع أناته وليس جرس كلماته، وإذا تأملت فنون القول لديه تراها وكأنها قد قُدَّتْ من عمق شكواه وشديد معاناته، كما كانت تراكيبه من طبقة طهارة نفسه وبراءة أنفاسه، وجودةُ تقنيات أسلوبه كانت صورة من رهافة عقله وعظمة تضحياته.

وههنا نموذج آخر، وهو مختلف قليلاً عمن تقدم، وهو (أحد بني سعد)، فهذا (الأحد) لا يتجاوز حدّ الانتقام إلى الفجور، لكنه لا يستطيب العفو أيضاً، إنما يجازي الظلم بظلم يماثله:[١]

بني عمنا قد كان ما كان بيننـــــا وذقتم على خَلّات أنفسكم حمضي

فإن تُبغضوني أن أكون ابن عمكم جَلِيداً فما أجريت إلا على بغضي

وإن تُعرضوا عني تجافيت عنكم تجافي دَفِّ الأرْحَبِيِّ عن الغَرض

هذا الرجل إن كان قد التزم بالنَّصَفَة في الانتصار لنفسه، فإنه يقف دون شاعرنا بكثير، إذ ليس لدى الرجل من سماحة النفس ما يمكنه من العفو، وليس له من رجاحة العقل ما يحفظ به اجتماع قومه ويصون قوتهم، فهو يُضعف قومه مرتين، مرة بالانتقام ومرة بمغادرته لهم، وذلك لأن غضبه أقوى منه، وهو ينقاد لشهوة نفسه، ولا يملك لها دفعاً، فأنى لمثل هذا أن ينال كرامة الخلق الرفيع لشاعرنا الحارث بن وعلة، إذ ليس له فضيلة شجاعته أمام نفسه، ولا رسوخ همته أمام أهوائه، وهو يَعدَم البصيرة التي بها يرعى الفرد مستقبل قومه، فمن يقتل جمعاً من قومه اليوم يقلُّ عديد فرسانهم غداً، ومن يفرق جمع أهله ويشتت وحدتهم الآن يهون في الغد على الناس.

---

١ - كتاب الوحشيات: ص ٦٠.

ويشبه هذا الأخير رجل آخر، يُباغِض مَن يُبغِضه، ويحارب من يحاربه، وإن قاتله ابن عمه قاتله، فَمَثَلُ القريب كمثل الغريب البعيد، يقول هدبة أخو بني عذرة[١]

لست بباغي الشر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

وحرَّبني مولاك حتى غشيته متى ما يُحَرِّبك ابن عمك تَّحْرب

هذه طاقة الرجل في التحمل، إن تركه الباغون من قومه تركهم، وإن تجنبوه تجنبهم، فهو ليس ممن يفيض بالشر، ولكنه ليس كذلك ممن ينشط للإحسان فيتجاوز عن الإساءة، فإن ناله أذى من غيره فإنه يغشاه بالسيف وإن كان ابنَ عمه، إذ ليس في خاطره فضل تسامح ليعفو.

هذه نماذج من الأَنَاسِيّ، شاركوا شاعرنا في الغرض، وهم - بهذا الاعتبار- يُدرَجون معه في باب واحد، لكن حتى يتمايز المناضلون، ويظهر فضل أحدهم على الآخر، كان لا بد من التدقيق. وبالبحث في الهيئات الخاصة لكل واحد منهم، ظهر الاختلاف وبان واتضح.

لكن لدينا - دون هؤلاء – نموذج أخير، يبدو للمتأمل أنه قرين شاعرنا وشريكه، في فضيلة الخلق وسماحة النفس.

وهو : "أعرابي قتل أخوه ابناً له، فقُدِّم إليه ليقتاد منه، فألقى السيف وهو يقول[٢]:

أقول للنفس تاساءً وتعزيـــة إحدى يـديّ أصابتني ولم تُـرِد

كلاهما خَلَفٌ من فقْدِ صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ربما تقول – وأنت محق- هذه سماحة نفس ظاهرة بيِّنة، تكاد تساوي ما لدى شاعرنا الحارث بن وعلة أو ربما تزيد عليه، وفوق هذا، توشك أن تفهم من وحي كلام الأعرابي هنا، ما يمكن أن نسميه أنّه في رضىً وراحة نفسٍ، فهل هذا من ذاك، وهل ما كان يخامر عقل الحارث بن وعلة ويعصف به كان من طينة ما جرى لهذا الأعرابي، إلا أن في الأعرابي سماحةً أكبر وسعةَ صدر أشمل؟!

---

١ - الشعر والشعراء: ٦٨٣/٢

٢ - شرح ديوان الحماسة: ٢٠٧/١.

وأقول، إن البون بين الرجلين أوسع مما يبدو لك في أول وهلة، والمدى بينهما في درجة المعاناة أبعد وأبعد، وسماحة النفس التي غَرَّتك من الأعرابي، فجعلتها سبب القِران بينه وبين شاعرنا، هي نفسها علّة التفرقة بينهما.

لا بدّ أنْ نلحظ أنَّ الفرق – مع التشابه الظاهر- بين الموقفين والشعرين كبير وكبير، وأول ما تراه أن الراحة لدى الأعرابي تكاد تكون مطلقة، ولا يكاد يشوبها شيء من الحزن، والأمر مختلف كلياً لدى شاعرنا الحارث بن وعلة، إذ كان الغضب والحزن والفقد لديه، أشدّ ما يكون، كما رأينا.

والعلة واضحة والسبب مكشوف، أعني سبب راحة الأعرابي وسبب رضاه، فالأعرابي لا يشعر بأن هناك عدواناً على ولده، هل تلاحظ كلمة (ولم تُرِد)، أي أن القتل كان خطأً، لاحظ نفي الإرادة، وكأن الوالد يقول إن أخي كان يحاول حماية ولدي وحِفظَه، لكن ما حصل كان خطأً، إذ أراد حمايته لكن القدر سبقه، هذا كلام وليّ المقتول، كلام الوالد، وهنا مكمن السر، وهو سبب السماحة وسكون النفس، وهو نفسه سبب البرودة في الشعر، إذا ما قيس إلى شعر الحارث بن وعلة، في عظيم محنته وحرارة شعره.

فالأعرابي لم تصبه محنة أصلاً، أعني محنة العدوان، أما الفقد فقد حصل، وما هوّن الفقد أكثر اعتقاد الأعرابي أن أخاه عِوضٌ من ولده (كلاهما خلف من فقد صاحبه)، وهذا الاعتقاد كسبه مزيداً من هدوء النفس وبرودة الشعر.

أما هيجان نفس الحارث بالغضب لافتقاده الأخ الحبيب، وحيث (لا عوض منه ولا خلف له)، واشتعال كبده في ارتداده عن الانتصار لأخيه، فقد بقي شديداً يضطرم في نفسه، وقد ضَمِن هذا لشعره سحراً يوصله بسهولة إلى قلوب الناس، إذ يكاد يشعر كل من يقرأ شعر الحارث بهذا المسّ الموجع.

أما الأعرابي فراحة نفسه وهدوء خاطره مردّها إلى سلامته من الفتنة، فتنة شعوره بالقهر وهول الظلم ومأساة العدوان، فهو –إذن - لم يدخل الاختبار الذي يكشف معادن الرجال.

ومن يدري ماذا كان سيفعل هذا الأعرابي؟! لو شعر أنه نُكِب في ولده العزيز، وأنه ظُلم وناله عدوان؟! والأعراب أهل عزة وأنفة، ولعله لو أصابته مرارة المحنة التي أصابت الحارث بن وعلة، لربما فارقته سماحته، ولربما جازى قاتل ولده جزاءً شرّاً مما جازى به السابقون من النماذج التي سبقت.

****

الخاتمة

وبعد، فهذه مسيرة أحوال رجل، تردد بين غايتين، كانت تصعد به أولاهما إلى أقصى ما يمكن من الشدة، وتَتَسَعَّرُ له، وكأن ناراً بين جنبيه يصطلي بها، فيرتد إلى الثانية، فإذا بها كسابقتها، وربما كانت أشد وأدهى، وكان الرَجُل من ذلك في محنة وفتنة، وعَنَتٍ لا يكاد يهدأ، لكن كان كلما اشتد عليه الأمر وثَقُل، رقّت أنفاسه وتَطَهَّرت أخلاقُه، ودقّت لغته وصَفَتْ قريحته، وإذا بالمَسيرة تتكشف عن رجل نبيل، لا يشبه أقرانه.

وكان كذلك، حتى كان لنا من ذلك كله مِنحة كريمة، أودع الشاعر لنا في كلماتها، ذاتَ نَفْسِه وشؤونَ صدره، فغدت على بعدها عنّا في الزمن قريبة منّا، ونحن بما فيها من معاناة وقهر نهتزّ لها ونطرب.

وغدونا من شاعرنا، الحارث بن وعلة، مع قصيدتين، إحداهما هي خصوصيات نظمه ودقائق مذهبه في التعبير، والثانية هي موقفه، ممثلاً في أخلاقه وخصاله وفرادة شخصيته.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة
هدف البحث	١٨٥٧
سيادة الثنائيات	١٨٥٨
خصائص لغوية وخصال إنسانية	١٨٥٩
مظاهر لغوية وشعرية موقف	١٨٦٠
تقنيات لغوية ومعدن رجل	١٨٦٢
تشابك المعاني وشعرية موقف	١٨٦٤
معادن أخرى لرجال	١٨٦٨
الخاتمة	١٨٧٥

ثبت المصادر والمراجع

-الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: كتاب الأغاني، تح: إحسان عباس وصاحبيه، ط٣، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨.

-البيهقي، ظهير الدين: تاريخ حكماء الإسلام: تح محمد كرد علي، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٦.

-الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز: قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط٣، دار المدني بجدة، ١٩٩٢.

-الحارث بن حلِّزة اليشكري: ديوانه: تح: إميل بديع يعقوب: ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١.

-الخطيب التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام: كتب حواشيه غريد الشيخ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.

- رومية، وهب أحمد: شعرنا القديم والنقد الجديد: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٠٧، مارس ١٩٩٦.

-الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس: كتاب الوحشيات، وهو الحماسة الصغرى: علق عليه وحققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، درا سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

-ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد: كتاب العقد الفريد: شرحه وضبطه أحمد أمين وصاحباه، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.

-العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله: المصون في الأدب: تح: عبد السلام هارون، ط٢، وزارة الإعلام في الكويت، الكويت، ١٩٨٤.

-الفرزدق، همام بن غالب التميمي: شرح ديوان الفرزدق: عني بجمعه وطبعه والتعليق عليه: عبد الله إسماعيل الصاوي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٣٦.

-ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء: تح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.

-المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة: نشره: أحمد أمين وصاحباه، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

-- أبو موسى، محمد محمد: خصائص التراكيب، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٠.

-الهلالي، حميد بن ثور: ديوان حميد: تح: محمد شفيق بيطار، دار الكتب الوطنية- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٠.

****